ساعة مع عبد البهاء

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

كلما اشتد قلق الضمائر في بلاد الغرب وكثرت أقوالهم في الدين والعقيدة توجهوا الى الشرق يبحثون في أديانه القديمة والحديثة عسى أن يجدوا فيها راحة من ذلك القلق وهداية الى وحي جديد ، لانهم علموا ان الشرق مصدر الاديان من أقدم الازمان ، فهو عندهم كفيل بأمر الدين كله وزعيم بهداية الحائرين الى قراره ، ولان الشرق مجهول في بلادهم فهو قريب من عالم المجهول ، وبين العالمين تناسب أو تقارب في الروح والخيال

ومن الاديان التي يتحدثون عنها ويكتبون في موضوعها كثيراً في هذه الايام دين البهائية الذي يضيف غرابة الجدة عندهم الى الغرابة الشرقية ، ويستقبل أحلام أفئدتهم بأمل لم يجربوه وقداسة عصرية تعجب الذين يهمون بالقداسة ولا ينسون الهيام في هذا العصر بالمخترعات والعلوم

وقد اطلعت على مؤلف حديث في البهائية وقرأت بعض النبوءات التي يتنبأ بها كتابهم لهذا المذهب فأحببت أن أدون لقراء « الهلال » ذكرى قديمة تعلق بخاطري من ذكريات زعيمه « عباس عبد البهاء » يوم أن كان في الاسكندرية قبل بضع عشرة سنة وكنت في بداية عهدي بدراسة الاديان والبحث في أمر العقائد . فقد شغلت يومئذ بمذهب التطور ومقابلات الاديان التي كتبت على « ضوئه » كما يقولون ، فكنا لا نجتمع إلا دار في هذا الموضوع بحث ووقع فيه خلاف ، وذهبت الى الاسكندريه فلقيني صاحب مشغول بأمر الدين كان يتردد على عباس أفندي ويوده ويوشك أن يميل الى عقيدته . فرغبني في زيارته وقال لي : « انك سترى بعينيك مبحثاً حباً من هذه المباحث التي يسرك أن تطلع عليها في الكتب » ، واتفقنا على زيارته عصر يوم من أيام الاستقبال عنده في الدار التي كان يقيم فيها بضاحية باكوس

ذهبت اليه وأنا استعيد في ذهني ما قرأته عن « باكوس » الأله الاغريقي القديم وما أعرفه عن « عبد البهاء » النبي الفارسي الجديد ، وبين هذا وذاك دنيا واسعة من التواريخ والآراء التي كنت مشغولا بها في ذلك الحين . فلما دعينا الى مجلسه اذا شيخ وقور أشيب لوح عليه سمت الحنكة والعلم أكثر من سمت النسك والنبوءة ، واذا بحضرته كاتب قد انتحى

بكرسيه جانباً من الغرفة على مسافة خطوات يتلقى من عبدالبهاء رسالة علمنا فيما بعد انها مكتوبة الى شوكت باشاوزير الحربية التركية . فحيانا تحية جميلة ، وأشار الينا بالجلوس فجلسنا ومضى يتم املاء الرسالة حتى فرغ منها . وجيء لنا باقداح الشاي في هذه الآونة يحملها رجل من أسرباء الفرس تحسب ثروته بالالوف، فوقف حتى شربنا وقفة المتهيب الخاشع ، ثم أخذ الاقداح متراجعاً وهو يستقبل عبد البهاء بوجهه حتى خرج من الباب

وكانت السماء تمطر رذاذاً ثم تدفق المطر غزيراً نحو نصف ساعة ثم همّ بالاقلاع ، وكنا في غرفة ـ أو في شرفة ـ مسورة بالزجاج مقفلة النوافذ نطل منها على حديقة الدار ونتظر الى الاشجار يتلاعب بها الهواء ويجلوها المطر فتزداد رواء ونضرة : فنظر اليها عبد البهاء طويلاً ثم التفت الينا كأنه يفيق من سبات أو يوقظنا من سبات . وقال :

« سبحان الله ! لكل شيء رزقه . فحيثما كان الشجر نزل اليه المطر »

قلت : « أو حيثما كان المطر نبت هناك الشجر »

فنظر الىّ متأملاً وقال : « أو هو كذلك ! »

فقلت وفي نفسي عراك الآراء الكثيرة والاقوال المتضاربة يغريني بالجدل والاستقصاء :

« فأي القولين أصوب ؟ »

قال في نغمة لا تفارقها الاناة والسكينة :

« كلاهما قريب ، وكلاهما صحيح »

ثم صمت قليلاً وعاد يقول : « تنظر الى الاقوال من حيث تتفق لا من حيث تفترق ، فترى بين كل قولين صلة وان ظهرا مختلفين متباعدين »

واسترسل في تلك النغمة التي لا تفارقها الاناة ولا يلوح عليها التعب : تعب الرجل الذي تكرر علمه بهذه الحقيقة مرات وتكرر ارشاده الناس اليها مرات ، فجعل يقول :

« كم من خلاف بين الناس هو أدنى الى الوفاق ! أليست الاديان كلها من معدن واحد؟ أليست الامم كلها من عنصر واحد ؟ ولكنهم يختلفون ، لماذا ؟ لانهم لا يعرفون كيف يتفقون»

وهنا اغتنمت هذه الفرصة وقدمت اليه كتابي « خلاصة اليومية » الذي طبعته قبيل ذلك باسابيع قليلة ، وهو أول كتاب ظهر لي في المطبعة ، سميته بذلك الاسم لانه كان مجموعة خواطر شتى كتبتها في مذكراتي اليومية وأضفت اليها ما عنّ لي في أثناء القراءة ، وقلت في صفحتها الاولى عن الجامعة الانسانية :

« ان انفراد كل صقع بخصوصية تميزه من سواه وتقدّم الناس الى الاشتراك جميعاً في الحاجة الى تلك الخصوصيات حسب اتساع مطالبهم وتقدم العمران ، مما يدل على ان كل الناس مرتبطون بكل الارض وان حواجز الاوطان ستنطمس معالمها لتصير الارض الوطن العام لنوع الانسان . وهذه الحركة الاقتصادية التي جاذبت بين أبعد الشعوب لتبادل المنفعة ستؤدي حتماً الى توحد المصالح العامة بين الامم بحيث تتضامن كلها في الانفعال بالعوامل الاقتصادية التي تؤثر على بعضها ، وهو ما يؤذن بانقضاء الحروب وسيادة السكينة والسلام

« وما زالت العوامل الاجتماعية منذ القدم تقذف بالانسان في دائرة أشبه بزرد الماء يتسع محيطها شيئاً فشيئاً فيشمل في كل دور ما كان خارجاً عنه في الدور الذي تقدمه . فان تكوّن القبيلة من العائلة ، والشعب من القبيلة، والامة من الشعب، والجامعة من الامة ـ يؤذن بان الخطوة التالية ستتقدم بنا الى الغاية التي طالما اشتغل كبار المصلحين لتحقيقها ، وهي دخول أمم الارض جمعاء تحت لواء جامعة واحدة ، هي الجامعة الانسانية »

فناولته الكتاب وأنا أشير الى مكان هذه الجملة ، فتقبله قبولاً حسناً وقرأ الجملة منعماً ثم ردد : « ان شاء الله ! ان شاء الله . أحسنت ، أحسنت »

وكأنه أحس نزعتي الى التفسير الاقتصادي الذي كان غالباً عليّ في تلك الفترة . فقال :

«ولكن العالم الآن مستغرق في المادة ، ولاسبيل الى السلام إلا من جانب الروح . العالم لا يطير إلا بجناحين جناح من المادة وجناح من الروح ، وهو الآن يطير بجناح واحد ويعوزه الجناح الآخر ، فهو منقسم على نفسه لا يبلغ كماله حتى تتفق فيه المطالب المادية والمطالب الروحية ، أما اذا سار حيث يسير الآن فسنحل به ـ وقانا الله وإياكم ـ نكبة مرهوبة تزلزله جناً وتفتح عينيه على الصراط المستقيم ولكن بعد أهوال لا تطاق »

كان ذلك قبل الحرب العالمية بسنتين ، وأذكر انني سكنت في العباسية بعد ذلك بشهور وكنت أتردد مع بعض أصدقائي على دكان حلوى لباقلاني فارسي كنا نسميه الباقلاني الفيلسوف لانه كان يعيش عيشة الفلاسفة ويتحدث في الاديان والسياسات تحدث العارف المكين ، فسمعنا منه يوماً كلاماً بمعنى ما تقدم من كلام عبد البهاء . فقلت له : « أبهائي أنت يا حاج حسين ؟ » قال : « نعم » . قلت : « أسمعت هذا الكلام من عبد البهاء ؟ » قال : « نعم ، سمعته منه وهو كائن لا محالة »

فكأن عباس أفندي كان ينذر سامعيه بالنكبة الكبرى ويعيد هذا النذير كلما عرضت له مناسبة ، ولا نشك في ان أتباعه يعدون ذلك من النبوءات الصادقات

ولا أدري كيف تطرق بنا الحديث الى قصة الزباء وما اليها من قصص العرب والفرس فاذا عباس أفندي مطلع على هذه الناحية من التاريخ أحسن اطلاع . إلا انني أذكر اننا تحدثنا عن الشرق والغرب وما بينهما من الخلاف المستحكم في العصر الحاضر وما كان للشرق من المجد القديم ، فساقنا الكلام على ما أظن الى تلك القصص التاريخية وتنقل اليها عباس أفندي ترويحاً لسامعيه . وكانوا يزدادون لحظة بعد لحظة ، فامسك عن الخوض في المباحث الفكرية واستطرد الى القصص التي يألفها جميع السامعين

على ان أحد الحاضرين فاتحه مقتحماً الكلام في مسائل الاديان المنزلة والفرق بين الاسلام والمسيحية فلم يسترح الى هذا الاقتحام كثيراً ولكنه قال على ما أذكر ان عيسى هو روح الله عند المسيحيين وعند المسلمين ، وان نبوءات المسيحية تشير الى ما بعدها من رسالات الانبياء ، فكلهم سواء في عبادة الله ، وسواء في جوهر العقيدة ، والخلاف في الظواهر لا يصح أن يلغي كل ذلك الاتفاق بين هذين الدينين ، بل بين جميع الاديان

وكان يتكلم العربية الصحيحة إلا انها دون الفصيحة في مخارج بعض الحروف . فاستأذناه في الانصراف حين بدأ الزائرون يتكاثرون على أمل العودة اليه في فرصة أخرى ، ولكننا اضطررنا الى السفر العاجل عقيب ذلك فلم نستطع أن نعود اليه

* * *

وهم يسألون الآن : هل ينتشر هذا المذهب ؟ وهل يفلح فيما يدعو اليه من التوفيق بين العقائد ؟ فيقول أنصاره نعم يفلح لانه مذهب صالح موافق للعلم الحديث . ونقول نحن ان افلاح مذهب من المذاهب لا يتعلق بصلاحه المفروض بعد انتشاره ، كما يتعلق بالبواعث التي تبعث النفوس قسراً الى الايمان به ، وان موافقة العلم الحديث لن تؤسس الايمان ابداً لان العلم الحديث أصغر من الانسان ولن يزال علماً انسانياً كيفما كان ، والانسان لا يؤمن إلا بما هو اكبر منه وأقوى وأقمن منه بالهيبة والخشوع

عباس محمود العقاد